**البعد العقائدي للعتبات المقدسة ودوره في صناعة السياحة في العراق**

**د. محمد حسين عبود / جامعة كربلاء / كلية العلوم الإسلامية**

يُعد مبدأ الإمامة من الأصول العقائدية المبرزة لمذهب العترة الطاهرة (عليهم السلام), والشعار الذي ما فتئ الشيعة يدافعون عنه بأنفسهم وأموالهم وأبنائهم، ولم تكن عقيدة الإمامة ـــ عبر تاريخها الطويل ـــ قيد التنظير الفكري الذي كان السمة الغالبة لما عداها من العقائد الأخرى, والذي لم يخرج من حلقات الدرس وأروقة المساجد الى ما هو أبعد, بل وجدت في شخص الإمام (عليه السلام) مساحة ميدانية واسعة استطاعت من خلالها أن تركز أبعادها وتجذّر حقيقتها في نفوس المسلمين عموما وأتباع أهل البيت (عليهم السلام) على الخصوص, لذا فقد تساوت معاني الولاء لمقام الإمامة باعتبارها الخلافة الشرعية والإمتداد الطبيعي للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم), والتي منحت الإمام المعصوم (عليه السلام) تلك المكانة العالية والشأن السامي ليست في حياته فحسب, بل وبعد استشهاده وانتقاله للرفيق الأعلى.

من هنا ترى المسلمين عموما وأتباع أهل البيت (عليهم السلام) على الخصوص يتسابقون في تقديم فروض الطاعة والتقرب والمحبة للمشاهد المشرفة التي ضمت بين جنباتها تلك القبور الطاهرة, ولم يكن هذا التقرب والحب متوقفا على مشاهد المعصومين الأحد عشر (عليهم السلام), بل شمل أبنائهم وأحفادهم وذراريهم ممن مضى في جنب الله قتلا أو طردا أو نفيا أو غير ذلك من أصناف التصفية البدنية, فانتشرت قبورهم في أرجاء المعمورة حاكية عن حجم التعسف الذي لاقوه من حكام الظلم والجور, وعلى مر الدهور والعصور أصبحت تلك القبور والمشاهد مزارات يأمها المسلمون على اختلاف طوائفهم, للتعبير عن موالاتهم لأهل البيت (عليهم السلام), لاسيما العتبات المقدسة في العراق, والتي أضحت مرفقا سياحيا مهما؛ كونها من مراكز الجذب الروحي لملايين البشر ومن مختلف الجنسيات والقوميات والمذاهب, بل ومن غير المسلمين أيضا.

والحق ان البعد الروحي لتلك المشاهد المقدسة, كان له أبلغ الأثر في نمو وتقدم الجانب السياحي في العراق, ولعل هذا ما دعى الباحث الى تسليط الضوء على هذا البعد والكشف عن علاقته المهمة في هذا النمو, لاسيما بعد عام (2003م), وما يترتب تبعا لذلك على القائمين على هذا القطاع الحيوي من تكثيف الجهود, من أجل بيان المكانة الدينية والتاريخية للعراق من جهة, وتوظيف القدرات الاقتصادية باتجاه ذلك من جهة أخرى.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون في مبحثين: تناول الأول منهما البعد العقائدي للعتبات المقدسة, فكان في مطالب أربعة: بيّن الأول: مكانة المعصوم (عليه السلام) في الفكر الإسلامي, أما الثاني: فقد تطرق الى مفهوم الشهادة في الفكر الإسلامي, وبيّن الثالث: الموقف الشرعي من زيارة القبور, فيما كان الرابع في شعيرة الزيارة المباركة، أما المبحث الثاني: فقد بيّن البعد السياحي للزيارة المباركة, وقد تناثر عقده في مطالب ثلاثة أيضا هي: الأول في النمو السياحي, والثاني: في الإلتقاء الحضاري والتلاقح الفكري, والثالث: في الإزدهار الإقتصادي, ثم نتائج البحث وتوصياته الني يأمل الباحث أن ترى النور على يد أهل الحل والعقد من ذوي الاختصاص, واستثمارها على النحو الذي يكشف عن الجوانب الحضارية والمعرفية والسياحية لهذا البلد العزيز.

**المبحث الأول: البعد العقائدي للعتبات المقدسة**

**المطلب الأول: مكانة المعصوم (عليه السلام) في الفكر الإسلامي:**

لقد صرّحت النصوص القرآنية ــ وبشكل جلي ــ في أكثر من موضع ومناسبة على ضرورة إتباع أهل بيت الوحي (عليم السلام)؛ لأنهم المعصومين من الزلل والخطل, وأنهم الإمتداد الطبيعي للرسالة والأقدر على قيادة الأمة بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم), قال تعالى:)) إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا))[[1]](#footnote-1)(1), وقال سبحانه: ((كونوا مع الصادقين)) [[2]](#footnote-2)(2) [[3]](#footnote-3)(\*), وقال جل شأنه: ((إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون)) [[4]](#footnote-4)(3)، فيما تظافرت النصوص الحديثية على التأكيد على هذا المعنى كقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): ((أيها الناس إني تارك فيكم ما إنْ أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي)) [[5]](#footnote-5)(4),وقوله: (صلى الله عليه وآله وسلم): ((مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح من قومه ركبها نجى ومن تخلف عنها غرق)) [[6]](#footnote-6)(5), وقوله: (صلى الله عليه وآله وسلم): ((علي مع الحق والحق مع علي)) [[7]](#footnote-7)(6), وقوله: (صلى الله عليه وآله وسلم): ((الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا)) [[8]](#footnote-8)(7), الى غير ذلك من الآيات والروايات التي تؤكد مكانة المعصوم (عليه السلام) في المنظومة العقائدية للفكر الإسلامي، وأنه المعني بالإتباع والمقصود بالإنصياع.

هذا مع ما وقع من الإختلاف بين المسلمين بعد وفاة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) والذي تكفل يوم السقيفة بنقل تفاصيله, الحاكية عن الإرهاصات الأولى للإنقلاب الفكري الذي أفضى الى سلب المنصب السياسي للمعصوم, وتجريده من السلطة التنفيذية الموكولة له من قبل المولى سبحانه وتعالى بصريح النصوص المارة آنفا, ولقد كان من نتائج هذا الإنقلاب الخطيرة هو الإرتجال المتعمد على مخالفة النص, وتبني خارطة طريق غير تلك التي أرادها ورسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم).

وكيفما يكن الأمر فلم يكن ذلك ليؤثر على المقام الروحي والسامي للمعصوم (عليه السلام), الذي منحته إياه السماء, وجعلته إماما للمسلمين بالنص والاختيار شأنه في ذلك شأن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم), فيبقى على المسلمين وجوب الإعتماد عليه والرجوع إليه في شؤون الدين والدنيا والآخرة, وهو كما قال الإمام علي (عليه السلام): ((كالكعبة يُؤتى ولا يأتي)) [[9]](#footnote-9)(8).

من هنا ترى المسلمين عبر التأريخ ــ على مختلف طبقاتهم ــ يلوذون بالمعصوم (عليه السلام) إذا داهمتهم الخطوب, وانقطعت دونهم السبل, فقد اشتٌهر عن عمر بن الخطاب قوله في أكثر من موقف: ((لولا علي لهلك عمر)) [[10]](#footnote-10)(9), وقول عثمان بن عفان كذلك ((لولا علي لهلك عثمان)) [[11]](#footnote-11)(10), ولم يكن أمام أهل العراق من سبيل للخلاص من جور بني أمية وظلمهم, سوى مكاتبة الإمام الحسين (عليه السلام)؛ ليحكم فيهم بحكم الله, وما كان أمام السبط الشهيد إلا ليلبي, ويضحي بروحه وأرواح أهل بيته وأصحابه في أرض كربلاء إعلاء لكلمة الله فاكتسب مفهوم الشهادة بذلك معان لايزال المسلمون يستذكرونها ــ مع تقادم الدهر ــ وهم يطوفون حول تلك القبور المقدسة لتلك الثلة الطاهرة, التي تسابقت على ذهاب الأنفس في سبيل الله والإنسان.

**المطلب الثاني: مفهوم الشهادة في الفكر الإسلامي**:

جعل الله سبحانه وتعالى الموت النهاية الحتمية لعمر الإنسان وغيره من المخلوقات, غير أنه من لطفه جل شأنه إختياره الموت لطائفة من عباده ــ ممن استحقوا شرف هذا الإختيار ــ ليكون ولادة لا موتا وخلودا لا فناء, وليكتسبوا به عمرا جديدا لا يعتري نواحيه الفناء.

وقد فاز بهذا الإجتباء ــ ابتداءأ ــ الأنبياء (عليهم السلام)، والأئمة الأطهار(عليهم السلام), ثم سائر الشهداء ممن مضوا على هذا السبيل.

فهذا نبي الله يحيى بن زكريا (عليه السلام)الذي بكته السماء واحمرت لموته[[12]](#footnote-12)(11), ولم تبك السماء بعدها حتى أستُشهد السبط أبي عبدالله الحسين (عليه السلام) في يوم عاشوراء, وقد أكد القرآن هذا المعنى فقال جل شأنه: ((ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون)) [[13]](#footnote-13)(12), ويؤكد في آية أخرى فيقول سبحانه: ((ولاتقولوا لمن يُقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون)) [[14]](#footnote-14)(13).

من هنا أخذ مبدأ الشهادة هذه المعاني السامية المرتبطة بالملكوت الأعلى, فلم يكن ليحضى بها إلا من كان ذو حظ عظيم، وقد تبلور هذا المعنى، حتى أضحى من أهم الأسباب التي تحث الناس على نيل شرف الجهاد في سبيل الله, لأنه وكما يؤكد أمير المؤمنين (عليه السلام): ((باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه)) [[15]](#footnote-15)(14)

من هنا اكتسى مبدأ الشهادة بتلك الحلة الربانية التي أعطت من تلبس به تلك القدسية والهيبة في قلوب الناس, وقد كان المعصومين (عليهم السلام) أسياد الشهداء عبر التأريخ, فما منهم إلا مقتول أو مسموم[[16]](#footnote-16)(15) في جنب الله ومن أجل الإنسان.

والواقع إن مفهوم الشهادة بقدر ما كان مختصا بتلك النفوس المقدسة لأهل بيت الوحي, بقدر ما كان مُجسِدا ميدانيا لحجم الظلم الذي لحق بهم, وناقلا دقيقا للجهل واللؤم الذي انطوت عليه سرائر خلفاء الجور والضلالة من حكام بني أمية.

وقد كان ذلك من جملة الأسباب التي منحت وفياتهم المباركة هذا العمق الزمكاني الذي لم ينل نظيره سائر الشهداء, وهو ما يكشف ــ بطبيعة الحال ــ عن نوع الإخلاص الذي كانوا عليه (عليهم السلام)، فهذا الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام), وقد تقاسمت ولادته وشهادته أشرف بقاع الله وأطهرها, فتشرفت الكعبة المشرفة باستقباله وليدا ساجدا لله, وتشرف مسجد الكوفة المعظم بتوديعه ساجدا فائزا بسهم الشهادة الأوفر وهو ينادي (فزت ورب الكعبة), يتلوه الإمام الحسن (عليه السلام), الذي يعبّر استشهاده عن اللؤم الأموي حين وجه الأمويون سهام حقدهم الى نعشه الطاهر, ثم حالوا بينه وبين أن يُدفن بجوار جده وحبيبه المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم), ولعل ظلامة أخيه الحسين سيد الشهداء (عليه السلام) أبلغ أثرا حين جُزر هو وأهل بيته وأصحابه في أرض عاشوراء, فماتو صبرا واستشهدوا بجنب الفرات عطاشى.

والواقع إن لشهادة الإمام الحسين (عليه السلام)خصوصية واضحة أخبر بها الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) حين استشرف عالم الغيب, وقد أعلمه جبرائيل (عليه السلام) بزمان ومكان وكيفية استشهاد سبطه الإمام الحسين (عليه السلام)[[17]](#footnote-17)(16), ولكي يؤكد الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) مكانة الحسين (عليه السلام) ويعطى استشهاده هذا الشأو السماوي، ويتم الحجة على أمته, فلا يبقى لمعتذر عذر في التقاعس عن نصرته وراح يردد قائلا: ((مكتوب عن يمين العرش إن الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة)) [[18]](#footnote-18)(17), ويؤكد أخرى بقوله :((الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة)) [[19]](#footnote-19)(18).

ولقد سار على ذات النهج سائر أئمة الهدى (عليهم السلام), فبلغوا أوامر الله وقدموا أنفسهم قرابين في سبيل إقامة الحق وإزهاق الباطل, ولاقوا ما تتصدع له الجبال وتخضع له الرجال, وهاهي مراقدهم المقدسة ومراقد مواليهم متفرقة في أنحاء العالم الإسلامي وغيره, قد انعقدت عند عتباتها النفوس, وانجذبت لها القلوب, واشرأبت لهيبتها الأعناق, أحاطت بها جموع المسلمين من أقاصي الأرض وغاية مناهم أن لا يحرمهم المولى سبحانه زيارتهم في الدنيا ولا شفاعتهم في الأخرى، وما ذاك إلا لأنهم الأنموذج الأمثل لمعنى الشهادة, ولأنها ازدانت بهم.

**المطلب الثالث: الموقف الشرعي من زيارة القبور**:

يلمس المتتبع لجانب من المطارحات العقائدية التي تتعلق ــ لاسيما تلك التي تتعلق بزيارة القبورــ بعض الإشكاليات الجدلية بين بعض فرق المسلمين التي غلب عليه طابع التطرف الذي كان نتيجة طبيعية لتعلقها بظاهر النص فحسب، ولإيمانها ببعض الكتاب وكفرانها ببعض، وإلا فإن الحجج والدلائل من الكتاب والسنة ــ والتي لا يسع المقام للإحاطة بها جميعا ــ تؤكد وبصريح القول على مرجوحية ومشروعية زيارة القبور سواء على الصعيد العقائدي أو على الصعيد الفقهي, فالقرآن يخبرنا عن أصحاب الكهف بعد أعثر عليهم ربهم ليضرب بهم مثلا ويؤكد للناس أنهم مؤمنون, وأن الله جعلهم آية من آياته ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة آتية لاريب فيها, حيث يقول سبحانه حكاية عن الذين غلبوا على أمرهم: ((قال الذين غلبوا على أمرهم)) وهم المؤمنون المسلمون ((لنتخذن عليهم مسجدا)) [[20]](#footnote-20)(19), وألفاظ الآية ٍ تُعرب بوضوح ــ ومن غير تكلف ــ على أن الدين الغالب آنذاك إنما هد دين الإيمان والإسلام بدليل إصرار الذين غلبوا على أمرهم على بناء المسجد عليهم ولفظ المسجد في العرف القرآني إنما دار عبادة الموحدين والمسلمين, والقرآن ملئ بالآيات التي تدلل على التلازم العقلي والفظي بين المسجد وبين المراد منه وهو السجود له سبحانه, لذا فقد مر الخطاب القرآني على هذا الفعل غير مادح ولا قادح, وهو مما يؤكد إقراره وموافقته عليه, بل ودعوته للإقتداء به, وفي آية أخرى يقول سبحانه مخاطبا نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) وموجها له بخصوص التعامل مع موتى المنافقين: ((ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره)) [[21]](#footnote-21)(20), ويمكن القول أن في الآية دلالتان تكشف الأولى: عن أهمية صلاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على الميت ودورها في التفريج والتخفيف عنه من هول القبر, وإلا لما نهاه المولى سبحاته عن الصلاة على المنافقين, لأنها ستكون من مضان الرحمة التي ستكون في غير أهلها ومستحقيها وهم المنافقون, فيما تكشف الدلالة الثانية: عن استحباب صرف فعل الصلاة من قبل النبي (صلى الله عليه وآله وسلم), ووضعها في محلها المطلوب وهم المؤمنون؛ لأنهم الأولى بالإنتفاع بصلاة النبي بعد موتهم, إذ لا يستوي المؤمنون والمنافقون بحال من الأحوال.

وقد كشفت السنة المطهرة عن بعض تلك النماذج التي حضيت بهذا اللطف النبوي حيث يروي المحدثون أنه لما ماتت السيدة فاطمة بنت أسد (رض) والدة أمير المؤمنين (عليه السلام)سكب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ماء الكافور عليها بيده, ثم خلع قميصه وكفنها به, ولما بلغوا اللحد حفره بيده, فلما فرغ دخل واضطجع فيه ودعا لها, وفعل ذات الأمر مع فاطمة بنت علي بن أبي طالب (عليه السلام) [[22]](#footnote-22)(21), ويكفينا في الختام قوله (صلى الله عليه وآله وسلم): ((إني كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة)) [[23]](#footnote-23)(22), ولايخفى ما في قوله (فزوروها)) من أمر واضح دال على وجوب زيارة مطلق القبور لأخذ العضة والعبرة, فما بالك إذا كانت تلك القبور مراقد من أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا, ومن سار على سمتهم من أصحابهم ومن العلماء والصلحاء والأولياء, وما قولك إذا كانت زيارتهم ليس للإعتبار فحسب, بل لتجديد الولاء بالله وبرسول الله وأهل بيته (عليهم السلام), بالتالي لا يمكن الخروج من دائرة المشروعية الفقهية في جواز زيارة القبور مطلقا، وزيارة قبور أهل البيت (عليهم السلام)على الخصوص.

**المطلب الرابع: شعيرة الزيارة المباركة:**

تظافرت الروايات من الفريقين الدالة على استحباب زيارة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) والأئمة من ولده (عليهم السلام), فقد أورد الدار قطني (ت358هـ)في سننه، وغيره ما يؤيد هذا المعنى, إذ يروي عن حاطب قال: قال: رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): ((من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي)) [[24]](#footnote-24)(23), بل روى الطبراني في معجمه الأوسط (ت360هـ) عن عبدالله بن عمر عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال: ((من زارني في المنام فكأنما زارني في اليقظة)) [[25]](#footnote-25)(24), أما الروايات التي تؤكد استحباب زيار أمير المؤمنين وسيد الشهداء (عليهما السلام) فهي لا تعد كثرة ولا تُحصى عددا, لعل منها: ((أن من زار أمير المؤمنين (عليه السلام) كان له الجنة)) [[26]](#footnote-26)(25), ورُوي ((أن من زار الحسين (عليه السلام) مُحّصت ذنوبه كما يُمّحص الثوب في الماء, ويُكتب له بكل خطوة حجة, وكلما رفع قدمه عمرة)) [[27]](#footnote-27)(26), ورُوي عن الإمام الرضا (عليه السلام) قوله: ((من زار الحسين بن علي (عليهما السلام) عارفا بحقه كان من محدثي الله تعالى فوق عرشه, ثم قرأ ((إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر)) (27), (28), أو قول الإمام الباقر (عليه السلام): ((من زار الحسين في ليلة النصف من شعبان غُفرت له ذنوبه, ولم يُكتب علي سيئة في سنته حتى تحول عليه السنة, فإن زار في السنة المستقبلة غُفرت له ذنوبه)) [[28]](#footnote-28)(29), وكذلك ما ورد عن الإمام الرضا (عليه السلام) قوله: ((من زارني على بعد داري أتيته في ثلاث مواطن حتى أُخلصه من أهوالها إذا تطايرت الكتب يمينا وشمالا, وعند الصراط, وعند الميزان)) [[29]](#footnote-29)(30), ولا يخفى ما في الوعد الذي قطعه الامام الرضا (عليه السلام) لزائره بتخليصه من أشد أهوال الآخرة ــ وهو الصادق الصدوق ــ من ترغيب مرّكز في زيارة قبره الشريف, بل وتحفيز على زيارة قبور سائر أئمة الهدى (عليهم السلام)؛ لنوال ذات المطلب؛ لأنهم جميعا أبواب رحمة الله ورضوانه.

والواقع إن الأئمة (عليهم السلام) مضافا لحثهم المتكرر على زيارة قبورهم الطاهرة، فقد وضعوا سنن وآداب وتعاليم فقهية وأخلاقية واجتماعية أرادو من خلالها إبراز الوجه المشرق للشيعة والتشيع، وإيصال الرسالة السماوية من خلالها الى كل الأجيال التي فاتها أن تكون حاضرة في ساحة المعصوم (عليه السلام), ثم أن سنن الزيارات تبعث في النفوس أسباب التعلق بالله, وتستنقذها من براثن البعد عن ملكوته سبحان بما تحتوي في طياتها من أنواع الأدعية العرفانية والروحية التي لايمكن عدها إلا دواء ناجعا لكل العاهات الآهات التي اضطرمت بها النفس البشرية.

وقد تكفلت طائفة واسعة من كتب الزيارات المروية بأسانيد معتبرة بيان كل ذلك وبتفاصيل غزيرة تغطي حاجة الفرد المسلم.

**المبحث الثاني: البعد السياحي للزيارة المباركة**:

**المطلب الأول: النمو السياحي:**

تبينت لنا أبعاد المكانة الروحية لنفوس المعصومين (عليهم السلام) عند المسلمين في حياتهم, وبعد استشهادهم, وكيف أضحت قبورهم وقبور أتباعهم مأوى العرفاء ومنزل العباد في كل زمان ومكان, ولقد كان ذلك من الأسباب الرئيسة في أن تتحول هذه المعالم المقدسة الى مراكز استقطاب سياحية قل نظيرها, إن لم يكن انعدم في التاريخ المعاصر, إذ لا يكاد يمر يوم مالم تكون المراقد الشريفة تغص بالزوار الذين يمثلون جنسيات وقوميات مختلفة, ويمكن أن نقف على حيثيات النمو السياحي للعتبات المقدسة في العراق, عبر النقاط الآتية:

أولا ــ إن من أهم ما يميز النمو السياحي المستمر للعتبات والمراقد المقدسة في العراق هو التعلق الروحي والعقائدي الذي يربط الزائرين (السائحين) من غير أبناء البلد بتلك المشاهد المقدسة ويشدهم ــ باستمرار ــ لغرض أداء الزيارة’ تحقيقا للهدف الذي حدده الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) من السياحة حين يقول :((فإن السياحة في أمتي لزوم المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة)) [[30]](#footnote-30)(1), وهم بعد مرابطون عند تلك البقاع المقدسة؛ لأداء الصلوات باعتبارها من أفضل مواطن العبادة.

ثانيا ــ يلاحظ أن سائر الأماكن السياحية في أنحاء العالم المتفرقة سواء في تلك الدول المتقدمة, أو غيرها، قد تتعرض بين فترة وأخرى الى كساد سياحي بسبب ارتفاع أسعار العملة النقدية أو بسبب الأزمات السياسية أو بسبب توجيه آلهجمات الإرهابية من قبل بعض الجهات المتطرفة اتجاه السياح القادمين ومن غير تمييز بينهم، كما حدث في مصر (شرم الشيخ) أو في الأردن أو غيرها, فيكون من البديهي انحسار نسبة السياحة في تلك البلدان وغيرها؛ لأن هدف السائح إنما هو الترويح عن النفس, وتغيير الأجواء الرتيبة, وتلبية الرغبات النفسية في التعرف على حضارات الآخرين, فإذا أصبح كل ذلك في كفة وحياته في كفة, فمن غير شك سيُفضّل حياته على إشباع تلك الحاجات التي ستنتهي بمجرد رجوعه الى بلده, ولن تبقى منها إلا الذكريات والصور.

أما ما يتعلق بالسياحة الدينية في العراق فالأمر يختلف تماما؛ لان مسألة زيارة العتبات والمراقد المقدسة في العراق, لا تعدو أن تكون رغبة في التعرف على هذه المعالم الحضارية لدى الزائرين (السائحين) ــ لأنه على علم تام بتفاصيلها قبل قدومه إليها ــ بقدر ما تكون مبدأ وعقيدة يشكلان محورية أساسية في شخصية كل زائر يقف على أعتاب العتبات المقدسة في العراق, يلحان عليه على الدوام ويدفعانه باستمرار الى تكرار الزيارة؛ من أجل إشباع رغباته الروحية الجامحة والحضوة بأهداف الزيارة الدينية والدنيوية, لذلك ترى العوامل والتي قد تكون من أبرز أسباب تقلص الجانب السياحي ــ كما مر آنفا ــ، هي ذاتها تكون من أهم أسباب النشاط السياحي في البلدان التي تضم المراقد المقدسة وخصوصا العراق, والذي لا يمر يوم عليه إلا وكان للتكفير بصمته في دماء العراقيين وخصوصا أتباع أهل البيت (عليهم السلام) منذ عام سقوط الطاغية (2003) وحتى كتابة هذه السطور.

والحق إنه يفترض بالأجواء الإرهابية الطائفية البغيضة التي مازال العراق يأن تحت وطئتها أن تكون عاملا رئيسا ليس في ضعف السياحة الدينية، بل في انتهائها بالمرة، غير أن الأسباب العقائدية التي كانت سببا في رواج هذه السياحة هي ذاتها التي كانت وستبقى سببا في انتعاشها وانتشارها.

من هنا يمكن عد تباين الأهداف والنوايا العقائدية لدى زوار العتبات المقدسة عن الأهداف والرؤى الترفيهية لدى السياح المتوجهين لزيارة المعالم الحضارية الأخرى من الدواعي المهمة في ثوران الجانب السياحي الديني الذي يشهده العراق حاليا.

ثالثا: يلاحظ وحدة الهدف عند الزائرين (السائحين) للمعالم الدينية في العراق, وهو من الأسباب التي تلعب دورا مهما في بقاء وحيوية السياحة الدينية في العراق، إذ لا يكون التلكؤ في تقديم الخدمات ــ مثلا ــ بأنواعها, سواء على المستوى الشخصي للسائح أو على المستوى العام للبلد، من الدواعي التي تدفع بالسائح الديني الى النفور وعدم التفاعل مع تلك المعالم الدينية, بخلاف غيره من السائحين في البلدان الأخرى والذين يتفاعلون ــ طرديا ــ مع المعالم السياحية التي يرومون التوجه لزيارتها، إذ قد يكون التقصير في نوع الخدمات المقدمة من قبل البلدان السياحية من أسباب هجران السياحة فيها، وهو ما يكون بطبيعة الحال من أسباب تدهور صناعة السياحية فيها.

من هنا يجب على المعنيين والقائمين على الجانب السياحي في العراق الإلتفات الى هذه النقاط؛ لأنها ــ في تقدير الباحث ــ ستضع اليد على سبل مهمة تلعب دورا مباشرا في النهوض بالواقع السياحي في العراق.

**المطلب الثاني: الإلتقاء الحضاري والتلاقح الفكري**:

لا يخفى أن من اهم الثمار والفوائد الناتجة من المورد السياحي هو التلاقح الحضاري بين أبناء الحضارات المختلفة، وهم يلتقون في أرض واحدة ولغاية محددة, إذ أن من أهم سمات المركوز العقائدي الذي ينطوي عليه مفهوم الزيارة للعتبات المقدسة عند السائحين القادمين من خارج البلاد, هو الحيوية والديمومة التي لا تنتهي عن زمان معين، بل هي دافع ثر يعمل على تنشيط الواعز والحافز لدى مختلف الجنسيات العربية وغير العربية, بالتالي فلا يمكن إغفال حقيقة أن من جملة الفرص المهمة التي يجب على القائمين على قطاع السياحة الدينية في العراق استغلآلها وتوظيفها على أحسن وجه هي استثمار فرصة التناغم الفكري بين مكونات المجتمع العراقي بكل أطيافه وبين المكونات القادمة من خارج العراق والتي تحمل المنظور الحضاري وتعكس معها الأيدولوجيات الفكرية المتنوعة للبلدان التي تنتمي اليها, من خلال مجموعة العادات والتقاليد والقيم التي تكون حاضرة, بحضور ملايين الزوار(السائحين) في كل عام, ولربما يبلغ عدد الزائرين الأجانب في زيارة واحدة كالزيارة الأربعينية المباركة ــ مثلا ــ أكثر من خمسمائة ألف زائر أجنبي.

والواقع إن نوعية الهدف واتحاده عند هذه الجموع المليونية الحاضرة عند البقاع الطاهرة لمن الدواعي المساعدة والمساندة لعملية التبادل الفكري المثمر, ومما يكشف عن أبعاد ذلك هو التقارب الإجتماعي والعاطفي والديني بين أبناء المجتمع العراقي من جهة وبين الزائرين من مختلف البلدان من جهة أخرى, حتى إن المتتبع يلمس عن كثب آثار هذا التقارب من جهة اللغة والعادات والمودة وتبادل الزيارات،وغير ذلك من سبل التقارب الإجتماعي الذي يعكس في حقيقته تمازجا حضاريا قلما يجود به مرفقا من مرافق السياحة في بلدان العالم الأخرى.

من هنا ينبغي الإستفادة من وجود هذا الخليط الحضاري الثر الذي يجسده الإختلاف الجنسي والقومي والمذهبي والفكري لملايين الزائرين, لاسيما خلال مراسيم الزيارات المليونية, وذلك من خلال:

أولا: تكوين الهيئات والمؤسسات التي تأخذ على عاتقها الإلتقاء بممثلي الوفود القادمة من الخارج واستثمار هذا اللقاء عبر تبادل الخبرات سواء على الصعيد السياحي أو غيره من الأصعدة, ولايمكن تجاهل الجهود المتميزة والحثيثة للعتبتين المقدستين في عقد المؤتمرات والمهرجانات السنوية والندوات والملتقيات القرآنية التي كانت وما تزال تسعى باتجاه ترويج الدين وبيان المكانة الإسلامية العالية لمدينة كربلاء المقدسة, وذات الأمر ينطبق على القائمين على العتبة العلوية والكاظمية المقدستين.

ثانيا: الإستفادة من تجارب البلدان الأخرى في معالجة المشاكل السياسية والإقتصادية ونحوها, إذ أن وفود الزائرين لا تكاد تخلو ــ بين فترة وأخرى ــ من الخبراء والعلماء، الذين يمكن الوقوف على خبراتهم في المجالات العلمية والعملية المختلفة، ولقد خطت العتبة الحسينية بهذا الإتجاه خطوات فعالة وناجعة، حيث نجحت باستقطاب كم واسع من الخبرات المعمارية القادمة من خارج العراق، والتي أبدت هي الأخرى رغبتها في تطوير المرافق المعمارية التابعة للعتبتين المقدستين, فكان من ثمار ذلك التطور العمراني الواضح للعتبات المقدسة وملحقاتها كـ(مدينة الزائرين) و(مجمع سيد الشهداء) وغيرها وفي شتى المجالات, وما ذاك إلا من آثار التمازج الفكري والحضاري الذي أنتجته السياحة الدينية في العراق.

ثالثا: ينبغي الإنتباه الى أنه في الوقت الذي يجب علينا أن نرّكز على ثمرات التواصل الحضاري الناتج عن صناعة السياحة الدينية في العراق،فإنه يتطلب منا عدم إغفال بعض الجوانب السلبية الخطيرة التي قد تترشح عن هذا التواصل, وهنا يأتي دور وزارة السياحة التي ينبغي أن تكون حاضرة لمعالجة مثل هذه الخروقات التي قد تلقي بضلال سيئة على عملية التلاقح الفكري،فتسارع الى تشريع القوانين التي من شأنها إزالة العوائق وإيجاد الحلول لمثل هذه السلبيات.

**المطلب الثالث: الإزدهار الإقتصادي:**

لاشك إن السياحة تشكل موردا مهما لكثير من دول العالم, وربما كانت الممول الرئيس لميزانية بعض بلدان ممن حباها الله بجمال الطبيعة، أو جعلها موطنا لحضارات قديمة لازالت تنبض بالحياة في أنحاء هذه البلدان.

ويمكن بيان الموارد الإقتصادية لقطاع السياحة الدينية من خلال ما يأتي:

أولا: تُعد السياحة من الصناعات المهمة التي تلعب دورا كبيرا في تزويد البلد بأنواع ــ العملات النقدية الصعبة ـــ من خلال قدوم الزائرين الذين يمثلون جنسيات متنوعة تؤم المعالم الإسلامية المقدسة يوميا, ابتداءا بسمة الدخول (الفيزا)،وانتهاءا بعودتهم الى بلادهم, إذ من غير شك إن وجود ملايين الزوار الأجانب خلال العام سيساعد كثيرا في تنشيط الحركة التجارية للبلاد من البيع والشراء ونحو ذلك سواء على مستوى الفرد أو المؤسسات أو الدولة.

ثانيا: إن قدوم السياح (الزائرين) الى العتبات المقدسة في العراق وبالعدد الهائل سنويا، سيستدعي توفير المسكن والمطعم وهو ما سيتطلب ــ بطبيعة الحال ــ بناء الفنادق والمرافق السياحية التي ينبغي أن تكون قادرة على إستيعاب هذا العدد في كل موسم، وهو ما يعني اتساع رقعة العمران والبناء في المدن المقدسة, وتحريك رؤوس الأموال على مستوى القطاعين الخاص والعام وهو ما سيساعد في النمو الإقتصادي لعموم البلاد, ويمكن ملاحظة ذلك في مدينة كربلاء ــ مثلا ــ التي بدأت الحركة العمرانية فيها تزدهر وبشكل واضح متمثلة بالتوسعة العمرانية للحرمين المقدسين كالمشروع الذي تبنته العتبة العباسية المقدسة المتضمن بناء ثلاث طوابق بسة (17400)متر وربع، وببناء الفنادق والمؤسسات الترفيهية والمستشفيات وغير ذلك.

ثالثا: إن من آثار المهمة للنشاط السياحي في المدن المقدسة أيضا، هو أنها أضحت مراكز استقطاب (للعمالة), من الداخل والخارج، فحركة الأموال فيها وارتفاع وتيرة العمل التجاري عاملان مهمان من عوامل استقدام الأيدي العاملة، واتساع رقعة المكاتب التجارية العاملة على توفيرها، ومما يؤكد ذلك هو انتشار ظاهرة وجود العمال والخدم الآسيويين في المطاعم والفنادق والبيوت في الآونة الأخيرة.

**نتائج البحث**

من النتائج التي توصل لها البحث في خاتمة المطاف هي:

أولا: إن للبعد العقائد للعتبات المقدسة الدور الأكبر في نمو النشاط السياحي الديني في العراق, وهو ذاته الذي يمنحها الديمومة والإستمرار، فلا تؤثر عليها بعض العوامل التي قد تؤثر على أنواع النشاط السياحي في بقاع العالم الأخرى، وهو مما يميزها عن سائر المناطق السياحية في العالم.

ثانيا: يمكن اعتبار السياحة الدينية ــ ووفق الخطط المدروسة ــ موردا اقتصاديا مهما، نظرا لتمتع المراقد المقدس والمعالم الدينية المنتشرة في أنحاء العراق،بهذا العمق الروحي لدى الوافدين من أطراف العالم.

ثالثا: ينبغي الإهتمام الكامل، والرعاية الجادة باللمدن المقدسة في العراق، وإعادة التفكير في كل ما يتعلق بخدماتها وبناها التحتية ومؤسساتها وغير ذلك, وفاءا لقدسيتها من جهة، ولكونها أصبحت ــ بحكم موقعها السياحي المتميز ــ عاكسا حضاريا وناقلا معرفيا ــ يترجم بشكل ميداني ولمختلف دول العالم، البعد الفكري الذي ينطوي عليه الموروث الحضاري للعراق من جهة أخرى.

رابعا: إن التوجه الديني الخالص الذي تزخر به العتبات المقدسة في العراق يمنح ذوي الحل والعقد من مفكري وعلماء المسلمين من الفريقين والساعين الى جمع الكلمة ورأب الصدع مساحة روحية وفكرية وفرصة حقيقية لتحقيق هذا المشروع ومواجهة مخططات التكفير التي ما فتئت تعصف بالواقع الإسلامي, فينبغي استغلال هذه الفرصة على أحسن وجه.

خامسا: أخيرا فإن الباحث يدعو وزارة السياحة وبالتعاون والتنسيق مع العتبتين المقدستين الحسينية والعباسية الى العمل الدؤوب في المطالبة بتكوين وزارة خاصة بالمراقد المقدسة في العراق؛ تتلائم والبعد الديني والتأريخي والحضاري الإنساني، وتتناسب و حجم العطاء الهائل الذي تقدمه للدولة, مقارنة بوزارات أخرى لا تقدم خمس هذا العطاء, بل ولا يعمل تحت إدارتها خمس عدد العاملين في تلك العتبات, كما أن السعي بهذا الإتجاه يُشعر المواطن بغيرة الدولة على الشريعة والدين،وهو ما يفضي بالتالي الى تركيز معاني الحب والاحترام بين الطرفين, وهو من أولى خطوات النجاح في إدارة الدولة.

**الهوامش**

(1) سورة الأحزاب/33.

(2) سورة التوبة/119.

(\*) لعل مما يستدعي الـتأمل والإستغراب هو ما ذكره الرازي في تفسير قوله تعالى:((كونوا مع الصادقبن)) من أنه لابد من معصوم في كل زمان, غير أنه يّصرح بأن المعصوم هو مجموع الأمة،لا ما يذهب له الشيعة من أنه فرد, والسؤال الذي يفرض نفسه في المقام هو: أين ومتى تحقق هذا المجموع،وقد افترفت الأمة بعد وفاة النبي(ص), حتى أصبحت مذاهب وطوائف مختلفة ؟؟؟.

(3)سورة المائدة/55.

(4)الترمذي:محمد بن عيسى(ت279):سنن الترمذي/تحقيق عبد الرحمن بن عثمان/الطبعة الثانية(1403هـ)/دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ــ لبنان 5/328.

(5)الحاكم النيسابوري:أبي عبدالله(ت405هـ):المستدرك على الصحيحين/دار المعرفة بيروت ــ لبنان 3/151.

(6)ابن قتيبة الدينوري:أبي محمد(ت276هـ):الإمامة والسياسة/ تحقيق د. طه محمد زيني/مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع 1/73.

(7)المجلسي:محمد باقر(ت1111هـ):بحار الأنوار/تحقيق محمد باقر البهبودي/الطبعة الثانية المصححة/(1403هـ)/مؤسسة الوفاء بيروت ــ لبنان.

(8)المفيد: محمد بن محمد بن النعمان(ت413هـ):أوائل المقالات/تحقيق الشيخ إبراهيم الأنصاري/ الطبعة الثانية(1414هـ)/دار المفيد للطباعة والنش والتوزيع/ 276.

(9)الأميني:عبد الحسين(1392هـ):الغدير/الطبعة الثالثة(1387هـ)/دار الكتاب العربي بيروت ـ لبنان8/189

(10) م.ن.

(11)ظ:المجلسي:بحار الأنوار45/210.

(12)سورة آل عمران/169.

(13)سورة البقرة/154.

(14)أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(ع)(ت40هـ):نهج البلاغة/شرح محمد عبدة/الطبعة الأولى(1412هـ)/مطبعة النهضة ـ قم 1/67.

(15)فقد صرّح الإمام الحسن المجتبى(عليه السلام) بقوله:لقد حدثني حبيبي جدي رسول الله(صلى الله عليه وآله)أن الأمر يملكه إثنا عشر إماما من أهل بيته وصفوته ما منا إلا مقتول أو مسموم.ظ:المجلسي:بحار الأنوار27/217.

(16)فقد رُوي عن أبي عبدالله(عليه السلام) فال: لما ولدت فاطمة الحسين جاء جبرائيل الى رسول الله فقال:إن أمتك تقتل الحسين من بعدك، ثم قال: ألا أُريك من تربتها؟ فضرب بجناحه فأخرج من تربة كربلاء فأراها إياه، ثم قال هذه التربة التي يُقتل فيها. ظ:المجلسي:بحار الأنوار44/236.

(17)البحراني:هاشم(ت1107هـ):مدينة المعاجز/الطبعة الأولى(1414هــ)/تحقيق ونشر مؤسسة المعارف الإسلامية قم ــ إيران4/52.

(18) أحمد بن حنبل(241هـ):مسد أحمد/دار صادر بيروت ــ لبنان3/3.

(19)سورة الكهف/21,ظ: تفسيرها عند الطبري:محمد بن جرير(ت310هـ):جامع البيان عن آي القرآن/تحقيق صدقي جميل العطار/دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت ــ لبنان15/282+ الواحدي(ت468هـ):تفسير الواحدي/تحقيق صفوان عدنان داوودي/الطبعة الأولى(1415هـ)/مطبعة دمشق بيروت ــ دار القلم/الدار الشامية2/657.

(20)سورة التوبة/84.

(21)ظ:آلهيثمي:نور الدين علي(ت807هـ):مجمع الزوائد ومنبع الفوائد/طبعة(1480هــ)/دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان9/256.

(22)مسند أحمد بن حنبل1/145.

(23)الدار قطني:علي بن عمر(ت358هـ):سنن الدر قطني/تحقيق مجدي بن منصور سيد الشوري/الطبعة الأولى(1417هـ)/دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان.

(24)الطبراني:سليمان بن أحمد(ت360هـ):المعجم الوسيط/طبع(1415هــ)/دار الحرمين للطباعة والنشر والتوزيع1/192.

(25),(26)الشريف المرتضى(ت436هـ):رسائل الشريف المرتضى/تحقيق أحمد الحسيني ــ مهدي الرجائي/طبعة(1405هـ)/مطبعة سيد الشهداء ـ قم1/291.

(27)سورة الرحمن/55.

(28)الميرزاالنوري:حسين(ت1320هـ):مستدر الوسائل ومستنبط المسائل/الطبعة الثانية(1408هـ)/تحقيق ونشر مؤسسة آل البيت(ع) لإحياء التراث بيروت ــ لبنان1/251.

(29)المجلسي:بحار الأنوار94/85.

(30)الصدوق:محمد بن علي(ت538هـ):كتاب الخصال/تحقيق علي أكبر غفاري/طبعة(1403هـ)/منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية في قم المقدسة/ 168.

1. [↑](#footnote-ref-1)
2. [↑](#footnote-ref-2)
3. [↑](#footnote-ref-3)
4. [↑](#footnote-ref-4)
5. [↑](#footnote-ref-5)
6. [↑](#footnote-ref-6)
7. [↑](#footnote-ref-7)
8. [↑](#footnote-ref-8)
9. [↑](#footnote-ref-9)
10. [↑](#footnote-ref-10)
11. [↑](#footnote-ref-11)
12. [↑](#footnote-ref-12)
13. [↑](#footnote-ref-13)
14. [↑](#footnote-ref-14)
15. [↑](#footnote-ref-15)
16. [↑](#footnote-ref-16)
17. [↑](#footnote-ref-17)
18. [↑](#footnote-ref-18)
19. [↑](#footnote-ref-19)
20. [↑](#footnote-ref-20)
21. [↑](#footnote-ref-21)
22. [↑](#footnote-ref-22)
23. [↑](#footnote-ref-23)
24. [↑](#footnote-ref-24)
25. [↑](#footnote-ref-25)
26. [↑](#footnote-ref-26)
27. [↑](#footnote-ref-27)
28. [↑](#footnote-ref-28)
29. [↑](#footnote-ref-29)
30. [↑](#footnote-ref-30)